اليوم الأول فى الكتاب

الاستاذ كامل كيلانى

كنت طفلا صغيرا جداً فى ذلك اليوم ، ولعله أول يوم أستطيع أن أذكره من أيام طفولتى الأولى . وما كنت لأذكره ـ وقد نسيت كثيرا مما حدث لي بعده بأعوام ـ لولا أنه كان يوما من الأيام التي لا تنسى إذا نسى الانسان كل ما عداه .

ذهبت الى الكتاب ـ وهو على بعد خطوات قليلة من البيت ـ مع ابن اختى ـ وكان فى مثل سنى أو يزيد قليلا ، ولست أدرى كيف ذهبت ، ولعله اصطحبني معه إلى الكتاب من غير أن يأذن له أبى في ذلك .

كل ما أذكره أننى كنت جالسا إلى جانبه على « دكة » من الخشب ، وحولنا كثير من الأطفال والصبية الصاخبين . ولست أستطيع أن أذكر كل ما وقع لى فى ذلك اليوم متتابعا فأنى أذكره كما يذكر الانسان حلما متقطعا مر به .

يخيل الى أن « الشيخ » قد تأخر عن الحضور قليلا فى ذلك الصباح ، أو لعله خرج لبعض شغله فساد الهرج وعلا صياح الأطفال وملأوا الكتاب صخبا وضوضاء .

وحاول « العريف » أن يسكت الأطفال فلم يستطع الى ذلك سبيلا ، وكان كلما حاول أن يهدئهم ازدادوا صياحا وصخبا .

وكان ذلك « العريف » ـ ولست أذكره إلا كما يذكر الحالم طيفا مر به فى منامه ـ رجلا طويل القامة فقد إحدى عينيه وأطبق الزمن جفنها إطباقا ، كما فقد إحدى ذراعيه ـ ولعلها الذراع اليمنى . وأذكر أنه أراد أن يثبت مسمارا فى الحائط ليعلق فيه بعض الألواح فلم يجد ما يثبته به فارتبك ، وزاد به ارتباكه ، فلجأ الى محبرة الشيخ وكانت سميكة الزجاج تخيل إليه لغباوته أنها صلبة لا يخرقها المسمار اذا دقه بها ، ولم يكد يفعل حتى خرقت المحبرة وسال مدادها الأسود على يده وثوبه ، فصفق الأولاد وصاحوا متهللين ، ثم دخل الشيخ ـ واسمه الشيخ عبد الباقى ـ فى هذه اللحظة مسرعا متجهم الوجه مقطب الأسارير ، فسكت الأولاد جميعا وعقد الخوف ألسنتهم وملأ الرعب قلوبهم ، وكان الشيخ ـ ولا يزال حيا إلى اليوم ولم تغير منه السنون التى تغير كل شىء ـ رجلا رزينا ثابتا تلوح على سيماه دلائل الأنفة وأمارات الوقار .

ولم يكد يدخل الكتاب ـ ولم يكن كتابه إلا مسجدا متخربا ـ حتى أمر « العريف » بأحضار « الفلقة » ليعاقب كل صبيان المكتب بالضرب جزاء لهم على ما اقتروه من إثم .

ثم ضرب الطفل الأول والثانى والثالث ، ولم يبق عليه إلا أن يضرب الرابع ثم يجىء دورى وقد كدت أهلك من الذعر ، وإنى لأترقب دورى خائفا مرعوبا ، وإذا بالدنيا تنقلب وإذا بالشيخ يجرى مسرعا الى الباب والاولاد يتبعونه خائفين يتوقعون الشر .

ترى ماذا حدث ؟

لقد سمعنا قصفا كقصف الرعد أو أشد ، ورأينا سقف الكتاب ـ أو سقف المسجد على الأصح ـ وقد كاد يهوى على رءوسنا جميعا ، ورأينا الأحجار تتناثر من جوانبه متساقطة على الأرض .

فأسرعنا جميعا الى الباب وجريت وابن اختى مسرعين الي البيت . وكنا نسمع الضوضاء والصياح في كل بيت فى طريقنا ، ونرى الناس يهربون مسرعين فى كل ناحية من نواحى الطريق والفزع آخذ منهم كل مأخذ ، ونرى الحجارة تقذف من كل مكان فتحطم النوافذ وتصيب الناس فيصيحون متوجعين مما أصابهم وتولول النساء من هول ما يرين ، ويفزع الرجال من هول مايرون ، ونحن لانعرف لكل هذا سببا ولاندرك السر فى كل هذا الفزع الشامل .

وسألت ابن اختى . « مامعنى هذا ؟ » فقال لى : « لقد قامت القيامة يا كامل وسيموت الناس جميعا »

وما كنت أفهم ـ ولا كان ابن اختى يفهم أيضا ـ ما معنى القيامة والموت ؟ ولكنها كلمة تلقفها من الأفواه فلاكها لسانه من غير تفكير .

ولم نكد ندخل بيتنا حتى رأينا الفزع يسود أرجاءه وسمعنا عويلا وصراخا ونحن نفزع لفزعهم ونخاف لخوفهم ، وكنا نسمع تحطيم الزجاج ونراه وهو يتساقط من النوافذ فيصرخ من فى البيت « لقد دنت آخرتنا وانتهت آخر أيامنا من الدنيا » وكانت أمى ـ يرحمها الله ـ تقبلنى باكية وتدعو الله أن يصد هذا البلاء عن الناس .

ولست أذكر كيف قضينا بقية اليوم ، ولكنني علمت ـ بعد ذلك ـ أن السبب في كل ماحدث هو انفجار البارود ـ وكان مكان الذخيرة فى سفح جبل المقطم قريبا من البيت والكتاب معا ـ فلما انفجر البارود قذف معه بكثير من الصخور والحجارة المحيطة به وألقى بها الى مسافات بعيدة وحطم أعالى المآذن القريبة منه .

وكان هذا الانفجار المروع سببا فى نجاتى من « علقة » الشيخ وفى كل مالقيت بعدها من الفزع والرعب !

كامل كيلانى